المحاضرة الرابعة :

وصف عام للحضارات العالمية في دائرة الدافع الحضاري (الفكري والنفسي)

رأينا في المحاضرة الأولى ، أنه إذا توافرت فكرة ما للإنسان في حقبة زمنية معينة ، وفي بيئة جغرافية مواتية .. فإنه لا يستطيع أن ينشئ حضارة أو تحضرا إلاّ إذا كان هناك دافع نفسي ، عند تفاعله مع تلك الفكرة التي يؤمن بها ، يثمر إنجازات مادية وثقافية وقيميه معينة ؛ يمكن أن نسميها " حضارة " .

غير أن هذه الحضارة الناشئة تبقى محكومة في نموها واستمرارها بتلك الأسس الفكرية و النفسية لمنشئيها .. فعلى قدرما تكون أبعادها القيمية محققة لسعادة الفرد وتلاحم الجماعة ، وعلى قدر تمسك الأفراد بها وتفاعلهم الإيجابي معها ، تستمر هذه الحضارة مشعة معطاءة ... وكلما خفتت هذه الأسس الفكرية والنفسية بضعف سلطانها على النفس وقلة فاعليتها في الدفع نحو التحضر ، أو كلما كانت تلك الأسس بعيدة عن أن تثمر تلك السعادة وتلك الوحدة وذلك التلاحم في الفرد والجماعة .. عجزت هذه الحضارة أن تضمن نموّها واطّراد بقائها . وفيما يلي أمثلة توصيفية لبعض الحضارات العالمية على ضوء الدافع الحضاري، و فاعليته في إنشائها، وحيويته في ضمان بقائها ، أو أفولها : ...

1/ الحضارة الإغريقية :

كانت الأسس الفكرية عند اليونان الإغريق قائمة على تمجيد العقل . ولذلك كانت مظاهر حضارتهم ذات صلة وثيقة بهذه الأسس ، إذ أثمرت لهم خلال قرون علوما فلسفية و رياضية ونفسية وطبية و

فنونا جمالية مختلفة . ولما كانت أسسهم الفكرية غير شاملة لحاجات الحياة كلها ، لم تستطع حضارتهم أن تعطي الصورة المثلى للحضارة الإنسانية الجديرة بالبقاء، لذلك زالت ولم تعمر طويلا .

2/ الحضارة الرومانية :

وكانت الأسس الفكرية عند الرومان قائمة على تمجيد القوة و الرغبة في بسط النفوذ والسلطان الروماني على الشعوب .. لذلك كانت مظاهر حضارتهم ذات صلة وثيقة بهذه الأسس ، إذ أثمرت لهم خلال قرون إعداد أجساد قوية ، وجيوش متقنة البناء حسنة الاستعدادات والتدريبات الحربية ، وأورثتهم هذه القوة سلطانا ممتدا في الأرض على شعوب كثيرة ، غلبوها واستعمروها ، واستغلوا خيراتها ، كما أثمرت لهم أيضا اشتراع مجموعة من القوانين والتنظيمات المدنية والعسكرية . ولما كانت أسسهم الفكرية والنفسية غير شاملة لحاجات الحياة كلها لم تستطع حضارتهم أن تعطي الصورة المثلى للحضارة الإنسانية الجديرة بالبقاء، لذلك زالت ولم تعمر طويلا .

3/ الحضارة الفارسية :

وكانت الأسس الفكرية عند الفرس قائمة على تمجيد اللّذة الجسدية والسلطان والقوة الحربية ، ولذلك كانت مظاهر حضارتهم ذات صلة وثيقة بهذه الأسس ، إذ أثمرت لهم خلال قرون قصورا فخمة ، ومجالات كثيرة للترف المفرط، وجيوشا حربية ذات بأس ، بسطت سلطانهم على شعوب كثيرة ، غلبوها واستعمروها ، واستغلوا خيراتها . ولما كانت أسسهم الفكرية و النفسية غير شاملة

لحاجات الحياة كلها لم تستطع حضارتهم أن تعطي الصورة المثلى للحضارة الإنسانية الجديرة بالبقاء، لذلك زالت ولم تعمر طويلا .

4/ الحضارة الهندية:

وكانت الأسس الفكرية عند الهنود قائمة على تمجيد القوى الروحية وتنميتها بقهر مطالب الجسد وكبت غرائزه، ولذلك كانت مظاهر حضارتهم ذات صلة وثيقة بهذه الأسس ، إذ أثمرت لهم خلال قرون مجموعة كبيرة من التعاليم الروحية التي أخذت بتطاول الأمد صبغة ملل ونحل وديانات ، ووجّهتهم للتعلق بالعلوم الروحانية كالسحر وفنون الحيلة الخادعة للحواس ، التي تعتمد على التلاعب بها ، والتأثير على النفوس من ورائها. ومنحتهم مهارات مختلفة في التأثير على الأحياء الشرسة ، فكثر فيهم حواة الثعابين والحيات والعقارب ، ونحو ذلك من الهوام السامة . ولما كانت أسسهم الفكرية و النفسية غير شاملة لحاجات الحياة كلها لم تستطع حضارتهم أن تعطي الصورة المثلى للحضارة الإنسانية الجديرة بالبقاء، لذلك زالت ولم تعمر طويلا .

5/ الحضارة الحديثة :

أما حضارة القرون الحديثة التي بدأت منذ أواخر القرن الثامن عشر للميلاد ، واستمرت في نموها المادي تمتد و تنتشر من مهدها في أوربا إلى كثير من بلاد العالم ، فأسسها قائمة على تمجيد العلوم المادية ، والاستفادة من جميع الطاقات الكونية الكامنة والظاهرة لخدمة الجسد ، ومنحه وافر الرفاهية والمتعة واللذة ، واختصار الزمن له ، وتقريب المسافات ، وتخفيف الجهد عنه ، ودفع الآلام الجسدية .. وقائمة أيضا على الرغبة ببسط السلطان على الشعوب واستغلال خيراتها، وإعداد القوة الكفيلة

بتحقيق ذلك بدءا واستمرارا . ولذلك نلاحظ أن مظاهر هذه الحضارة الحديثة ذات صلة وثيقة بهذه الأسس ، إذ أثمرت لإنسان هذه القرون الحديثة ولمن يأتي من بعده مجموعة كبيرة جدا من العلوم المادية المتطورة المتقدمة ، ومجموعة ضخمة من المبتكرات والمخترعات التي أفادت الإنسان في مختلف مطالبه المادية السلمية والحربية، ومجموعة ضخمة من النّظم والتشريعات الوضعية ، التي ساهمت في تنظيم علاقات الناس أفرادا وجماعات وأمما وشعوبا ودولا ، كما أثمرت ذخائر كبيرة جدا من القوى الحربية الدفاعية والهجومية .

والباحث المنصف يلحظ في هذه الحضارة الحديثة أنّ أسسها الفكرية غير شاملة لحاجات الحياة كلها ، وذلك لإهمالها جوانب مهمة من حياة الإنسان النفسية والروحية والخلقية والسلوكية ، ولاستهانتها بالجوانب الفكرية العليا المتّصلة بمنشأ الإنسان ومعاده والغاية من وجوده .

وعليه فإنّ هذه الحضارة لن تستطيع أن تعطي الصورة المثلى للحضارة الإنسانية الراقية ، وربما يكون تقدّمها الباهر في وسائل الرفاهية وعتاد القوة سببا من أسباب دمارها المذهل ، الذي بات وشيكا من خلال ملامحه في الأزمة المالية الحادة التي تمر بها الدول الاقتصادية الكبرى اليوم .

6/ الحضارة الإسلامية :

وأما الحضارة الإسلامية فهي الحضارة الوحيدة التي تشتمل أسسها الفكرية والنفسية على حاجات الحياة كلها ، من مختلف جوانبها الفكرية والروحية والنفسية والجسدية والمادية ؛ الفردية والجماعية ، ومن جميع المجالات العلمية والعملية . لذلك فهي جديرة بأن تمنح الأمم التي تلتزم بها وتسير على منهجها سيرا قويما الصورة المثلى للحضارة الإنسانية الراقية.

وقد استطاعت أسس هذه الحضارة ووسائلها ومناهجها أن تدفع الأمة الإسلامية في حقبة من الزمن للارتقاء في سلم الحضارة المجيدة المثلى ، على مقدار التزامهم بأسسها و وسائلها ومنهاجها السديد، وكانت نسبة الارتقاء الذي أحرزته هذه الأمة نسبة مدهشة إذا قيست بالزمن والطاقات التي تيسرت

لهم حينئذ ، واستمروا في ارتقائهم المدهش حتى أدركهم الوهن والانحراف عن أسس الحضارة الإسلامية الصحيحة ، ووسائلها الفعالة ومنهجها السديد . ويظل ارتقاء قمم الحضارة المثلى أبد الدهر رهنا بالتزام أسس الحضارة الإسلامية ووسائلها ومنهجها .